

الْخَلِيفَةُ الْمَأْمُونُ

فَارِسُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَرَاعِي التَّرْجَمَةِ وَالْإِخْتِرَاعَاتِ

أَنَا الْمَأْمُونُ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ هَارُونَ الرَّشِيدِ، سَابِعُ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ، وُلِدْتُ عَامَ 170 هـ، فِي الْيَوْمِ الَّذِي تَوَلَّى فِيهِ وَالِدِي الْخِلَافَةَ، لِأُمِّ فَارِسِيَّةٍ اسْمُهَا مَرَّاجِلٌ، مَاتَتْ فِي نِفَاسِهَا بِـ. شَهِدَ عَصْرِي تَهْضُمَةً عِلْمِيَّةً وَفِكْرِيَّةً؛ إِذْ شَارَكْتُ فِيهَا بِنَفْسِي، فَقَدْ تَفَرَّدَ عَهْدِي بِتَشْجِيعِ مُطَلِّقِ الْعُلُومِ مِنْ فِلَسَفَةٍ وَطَبِّ وَرِيَاضِيَّاتٍ وَفَلَكٍ، وَاهْتِمَامِ خَاصٍّ بِتَرْجَمَةِ الْعُلُومِ الْيُونَانِيَّةِ، لِذَلِكَ أُوَلِّتُ بَيْتَ الْحِكْمَةِ فِي بَغْدَادَ عِنَايَةً فَائِقَةً، وَوَهَبْتُهُ مِنْ مَالِي وَوَقْتِي كَثِيرًا.

وَنَتِيجَةً لِهَذِهِ النَّهْضَةِ، شَهِدَ عَهْدِي الْإِعْلَانَ عَنْ عَدَدٍ مِنَ الْإِخْتِرَاعَاتِ، مِثْلُ «الْأَسْطِرْلَابِ»، هَذَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى عَدَدٍ مِنَ الْأَلَاتِ التَّقْنِيَّةِ الْآخَرَى، وَفِي عَهْدِي أَيْضًا حَاوَلَ الْعُلَمَاءُ قِيَاسَ مُحِيطِ الْأَرْضِ، مَا يَدُلُّ عَلَى الْعِلْمِ بِكُرْوَانِيَّتِهَا مِنْ نَاحِيَةِ وَتَطَوُّرِ الْعُلُومِ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى، وَقَدْ تَكُونُ عَمَلِيَّاتُ التَّرْجَمَةِ الَّتِي قُمْتُ بِرِعَايَتِهَا بِمُسَاعَدَةِ حَاشِيَتِي وَوُلَاتِي، أَتْرَزَّ سَمَاتِ عَهْدِي؛ إِذْ نُقِلَتْ خِلَالَهَا الْعُلُومُ وَالْآدَابُ الشَّرْيَانِيَّةُ وَالْفَارْسِيَّةُ وَالْيُونَانِيَّةُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ، كَمَا اكْتَسَبَتْ مِنْ خِلَالِهِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ مَكَانَةً مَرْمُوقَةً؛ إِذْ تَحَوَّلَتْ مِنْ لُغَةٍ شِعْرٍ وَأَدَبٍ فَحَسْبُ، إِلَى لُغَةٍ عِلْمٍ وَفِلَسَفَةٍ. وَكَذَلِكَ فَقَدْ سَاهَمَتْ عَمَلِيَّاتُ التَّرْجَمَةِ فِي إِرْسَاءِ مَنْسُوبِ ثَقَافِي عَالٍ فِي الدَّوْلَةِ. طُفْتُ بِالْعَدِيدِ مِنَ الدُّوَلِ وَالْأَمْصَارِ، فَرَزْتُ مِصْرَ وَدِمَشْقَ.

أَبْدَيْتُ اهْتِمَامًا بِاللُّغَا بِجَمْعِ تَرَاثِ الْحَضَارَاتِ الْقَدِيمَةِ، خَاصَّةً الْحَضَارَةَ الْيُونَانِيَّةَ، فَقَدْ أَرْسَلْتُ بَعْثَاتٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَقَبْرُصَ لِلْبَحْثِ عَنْ نَفَائِسِ الْكُتُبِ الْيُونَانِيَّةِ وَنَقَلْتُهَا إِلَى بَيْتِ الْحِكْمَةِ فِي بَغْدَادَ، الَّذِي كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَعْهَدٍ عِلْمِيٍّ يَضُمُّ مَكْتَبَةً لِنَسْخِ الْكُتُبِ وَدَارًا لِتَرْجُمَتِهَا إِلَى الْعَرَبِيَّةِ، وَكَانَ لَهُ مُدِيرٌ وَمُسَاعِدُونَ وَمُتَرْجِمُونَ وَمُجَلِّدُونَ لِلْكُتُبِ. وَمِنْ نَوَادِرِ شِعْفِي بِالْعُلُومِ وَالثَّقَافَةِ الْإِغْرِيْقِيَّةِ أَنِّي رَأَيْتُ أَرْسُطُوْفِي مَنَامِي مُؤَكَّدًا لِي عَدَمَ وُجُودِ تَعَارُضٍ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالذِّهْنِ. كُنْتُ أَشْجَعُ الْمُنَاطَرَاتِ الْكَلَامِيَّةَ وَالْبَحْثَ الْعَقْلِيَّ فِي الْمَسَائِلِ الدِّينِيَّةِ كَوْنَهَا وَسِيلَةً لِنَشْرِ الْعِلْمِ وَإِزَالَةِ الْخِلَافِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، مَا أَدَّى إِلَى قُوَّةِ نُفُوزِ الْعُلَمَاءِ فِي الدَّوْلَةِ، وَكَانَ مِنْ أَشْهَرِهِمْ أَبُو عَثْمَانَ الْجَاحِظُ.

وَقَدْ أَصْدَرْتُ بَرْنَامِجًا مَنَهْجِيًّا لِلدِّرَاسَاتِ الْفَلَكِيَّةِ فِي أَوَّلِ الْمَرَاوِدِ الْفَلَكِيَّةِ التَّخْصُّصِيَّةِ الْمَقَامَةِ بِبَغْدَادَ وَدِمَشْقَ، وَأَرْسَلْتُ أَوَّلَ بَعْثَةٍ مُوسَّعَةٍ مُكْرَسَةً لِإِجْرَاءِ التَّجَارِبِ الْعِلْمِيَّةِ، وَكَشَفَتْ هَذِهِ الْمَسَاعِي عَنْ طَرِيقَةِ الْعُلَمَاءِ الْعَرَبِ فِي فَهْمِ الْمُتُونِ الْكِلَاسِيْكِيَّةِ وَاسْتِيعَابِهَا لِأَلِكُونِهَا غَايَةً بِحَدِّ ذَاتِهَا، بَلْ كُنْتُ أَنْطَلِقُ لِإِجْرَاءِ أَبْحَاطِهِمْ وَدِرَاسَاتِهِمْ الْخَاصَّةِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَسَارِيْعُ بِدَايَةِ السَّيْرَةِ الْمِهْنِيَّةِ لِبَعْضِ مِنْ أَهَمِّ الْعُلَمَاءِ وَالْمُفَكِّرِينَ الْأَوَائِلِ فِي الْإِسْلَامِ.

كَانَ لَدَيَّ فُضُولٌ دَائِمٌ لِمَعْرِفَةِ الْعَالَمِ مِنْ حَوْلِي، وَمِيْلٌ إِلَى الْبَحْثِ وَالْمَنْهَجِ الْعِلْمِيِّ؛ فَخِلَالَ زِيَارَتِي إِلَى مِصْرَ سَنَةَ 832 مَ حَاوَلْتُ تَعَلَّمَ اللُّغَةَ الْهِيْرُ وَغَلِيْفِيَّةَ، وَدَخَلْتُ هَرَمَ الْجِيْزَةِ الْأَكْبَرَ فَوَجَدْتُ الْقَبْرَ الْمَلَكِيَّ فَارْغًا قَدْ نَهَبَهُ اللَّصُوصُ.

أَبْدَيْتُ اهْتِمَامًا عَمِيْقًا بِعَمَلِ الْعُلَمَاءِ بِبَيْتِ الْحِكْمَةِ؛ فَكُنْتُ أَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ بِانْتِظَامٍ لِلتَّبَاحْثِ مَعَ الْخُبْرَاءِ وَالْمُسْتَشَارِينَ فِي آخِرِ مَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ الْبُحُوثُ وَفِي مَسَائِلِ التَّمْوِيلِ وَسِوَى ذَلِكَ مِنْ مَسَائِلِ ذَاتِ صِلَةٍ، وَكُنْتُ دَائِمًا أَشَدُّ عَلَى الْاسْتِزَادَةِ مِنْ دِرَاسَةِ الرِّيَاضِيَّاتِ وَعِلْمِ الْفَلَكِ.

